المحاضرة الثالثة

الوقائع الاقتصادية في العصور الوسطى (01)

استغرقت العصور الوسطى مدة عشرة قرون تقريبا تبدأ من سقوط روما على يد قبائل الجرمان سنة 476م إلى سقوط القسطنطينية سنة 1453م، وقد عرفت هذه المرحلة في تاريخ أوروبا بعصور الظلام نظرا لما غلب عليها من ركود فكري وسيطرة الكنيسة في جميع المجالات. إلا انها لم تكن كذلك في الحضارة الإسلامية. ولهذا نميز في هذا المحور بين الوقائع الاقتصادية في العالم الغربي (أوروبا)، والوقائع الاقتصادية في العالم الاسلامي.

أولا: الوقائع الاقتصادية في العالم الغربي

من أبرز معالم العصور الوسطى في أوروبا سيطرة الكنيسة وسيادة النظام الاقطاعي اللذان كانا من أهم أسباب الركود الاقتصادي والفكري في أوروبا خلال العصر الوسيط:

1– سيطرة الكنيسة: لقد كان للكنيسة دورا قياديا في العصور الوسطى في أوروبا، فقد كانت من أكبر حائزي الأراضي كما سيطرت على الحياة السياسية والفكرية للمجتمع الأوروبي واحتكرت التعليم فهي المؤسسة الوحيدة المسؤولة على التعليم والمواد الدراسية وإصدار الكتب، فكان لها تأثير كبير على الحياة الفكرية في جميع المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية. ونتيجة لذلك فإن الأفكار التي ظهرت لتفسير بعض الظواهر الاقتصادية كان من روادها رجال الدين والكنيسة الذين قاموا بتفسيرها انطلاقا من منظور ديني وأخلاقي، فلم يكن باستطاعة أحد من الناس أن ينقض اتفاقا على صفقة ما، أو يبرم عقدا ما، أو يتصرف في أداة من أدوات الزراعة دون استشارة أحد رجال الدين.

2– النظام الاقطاعي: لقد كان النظام الاقطاعي الذي ساد في أوروبا في تلك الفترة كمحصلة للفوضى التي عمت في أعقاب سقوط الإمبراطورية الرومانية، فقد عمد الامبراطور الجرماني – بعد انتصاره– إلى تنصيب قادته أمراء(حكام) على أقاليم الإمبراطورية وتوزيع جزء من حقوقه وصلاحياته عليهم. هذه الحقوق والصلاحيات أخذت شكل قاعدة في كل وحدة من الأرض هي الاقطاعية، وبذلك يدينون له بالولاء والتبعية.

ولهذا فإن النظام الاقطاعي هو نظام سياسي واجتماعي واقتصادي يقوم على أساس نظام هرمي على رأسه الامبراطور الذي يخضع له مباشرة حكام الإقطاعيات، إلا أن توسع الإمبراطور في منح الحكام الكثير من الصلاحيات والاختصاصات أدى تدريجيا إلى استقلالية هذه الاقطاعيات في إدارة شؤونها، وانتشار الحروب والعداوات بين الاقطاعيات.

لقد كان النظام الاقطاعي زراعيا حيث كانت الزراعة هي النشاط الرئيسي في الاقطاعيات ثم أصبح حرفيا في القرن 12م.

2–1 النظام الاقطاعي الزراعي: لد كانت الزراعة تحتل المركز الأول بين أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة في أوروبا في العصور الوسطى، وبالتحديد من القرن 5م إلى القرن 12م. ومن أهم الخصائص الاقتصادية التي كانت تميز هذا النظام خلال هذه المرحلة:

أ– سيطرة حكام الاقطاع (الأمراء) بدل سيطرة الحكومة الذين أصبحوا يجبون الضرائب لحسابهم الخاص، كما استخدموا كل الوسائل الممكنة من ضغط وتهديد وإرهاب للاستيلاء على أراضي الفلاحين الأحرار الذين تنازلوا عن الأرض وعن جانب من حريتهم وتحولوا إلى فلاحين أقنان* وهكذا أصبحت الاقطاعية تتشكل من طبقتين رئيسيتين:

- السيد (الحاكم الاقطاعي) الذي يمتلك الأرض وما عليها من وسائل إنتاج ومن الفلاحين الأقنان؛
- الفلاحين الأقنان وهي فئة ترتبط بالسيد الاقطاعي ارتباطا الزاميا خاضعة لبعض المظاهر العبودية؛

إلى جانب هذاكانت هناك فئات أخرى مثل العبيد الذين يخدمون في قصور الحكام وصغار الحرفين..؛

ب– تميز النظام الإقطاعي بمستوى منخفض جداً من الفن الإنتاجي، وبساطة أدوات الإنتاج المستخدمة. كما كانت الزراعة تتم بطرق ثلاث:

---

* **الفلاحون الأقنان أو رقيق الأرض أو التابعون: هم حالة وسط بين الحرية والعبودية، فالعبد يعمل بدون مقابل بينما الفلاح القن (التابع) يعمل بمقابل فقد كان يحق للفلاح أن يعمل أياما معينة لنفسه لحسابه في قطعة الأرض التي يعطيه إياها مالك الأرض، وكان الفلاح القن يعمل بقية الأيام في خدمة السيد، ولكن لا يمتلك حريته فقد كان الفلاح القن يتبع الأرض أينما ذهبت، بمعني أنه إذا بيعت الأرض تباع بمن عليها من الفلاحين.**

– **نظام الحقل الواحد:** ويتميز هذا النظام بزراعة جميع المحاصيل في حقل واحدة عدة أعوام متتالية الأمر الذي يؤدي إلى قلة إنتاجية الأرض بسبب نقص خصوبتها فيضطر المزارع إلى الهجرة إلى حقل آخر... وهكذا.

– **نظام الحقلين:** ويقوم هذا النظام على أساس تقسيم الأرض إلى قسمين، يزرع أحدهما ويترك الآخر بدون زراعة على أن يعكس الوضع في العام التالي. ويهدف هذا النظام في الزراعة إلى تجديد خصوبة الأرض، بحيث لا يصبح المزارع مضطراً إلى الانتقال إلى مناطق جديدة.

– نظام الحقول الثلاثة: وفي ظل هذا النظام كانت الأرض تقسم إلى ثلاثة أقسام يزرع اثنان منها فقط كل عام، على أن يترك الثالث دون زراعة ليسترد خصوبته، فإذا كان لدينا ثلاثة حقول (أ)، (ب)، (ج) يقوم الفلاح القن في العام الأول يزرع (أ)قمحاً، ويزرع (ب) شعيراً، ويترك (ج) بدون زراعة. وفي العام الثاني يزرع (أ)شعيراً، ويزرع (ج)قمحاً ويترك (ب) بدون زراعة. وفي العام الثالث يزرع (ب) قمحاً، ويزرع (ج) شعيراً، ويترك (أ) دون زراعة.

ج– كانت الأرض مقسمة إلى قسمين:

– قسم كان يخص السيد الاقطاعي ويقوم الفلاحون الأقنان بزراعته لحسابه دون أن يتقاضوا أجرا على ذلك. أي العمل وفق نظام السخرة في ذلك الجزء من الأرض المخصص للإقطاعي.

– قسم آخر كان السيد الاقطاعي يوزعه بالتساوي على الفلاحين الأقنان التابعين له لزراعته لحسابهم مقابل أن يدفعوا له ريعا†، الذي كان في البداية عينيا (ريع عيني) ثم أصبح نقديا.

---

† **للريع ثلاث أشكال: ريع السخرة وهو أول شكل من أشكال الريع الاقطاعي، في هذا الشكل كان الفلاح ينتج انتاجه الضروري لسد رمقه ورمق عائلته (ما يبقيه وعائلته على قيد الحياة) في أرضهِ. أما الانتاج الفائض فكان ينتجهُ في أرض الاقطاعي حيث يخصص الفلاح أياما من الاسبوع للعمل في أرض السيد الاقطاعي مستعيناً بأدوات انتاجه الخاصة (دواب العمل , المحراث , وغيرها) والانتاج كله يذهب للسيد الاقطاعي. وهذا ما يُدعى بالسخرة والعمل الاكراهي.**

الريع العيني يعمل الفلاح القن في قسمه من الارض لحسابه ثم يعطي السيد الاقطاعي جزء من المحصول هو الريع العيني. كمل يخصص هذا الفلاح أياما من الاسبوع للعمل في قسم السيد الاقطاعي دون مقابل (نظام السخرة).

الريع النقدي وهو شكل محوّل ومطوّر للريع العيني والاختلاف بينهما يتمثل في أن الفلاح القن كان يدفع للإقطاعي في الاول جزء من المحصول أما في الشكل الجديد فيدفعهُ نقداً أي يقوم ببيع المحصول ويدفع نقودا للسيد الاقطاعي

د– لقد كان اقتصادا زراعيا راكدا لا مجال فيه للكسب ولا للخسارة، ولا لاستعمال النقود على نطاق واسع. بمعنى أن الهدف من الإنتاج في ظل هذا النظام اشباع حاجات سكان الاقطاعية.

هـ– لقد كان اقتصادا مغلقا بمعنى أن كل اقطاعية كانت تشكل وحدة اقتصادية مستقلة وقائمة بذاتها ومنفصلة تماما عن الاقطاعيات الأخرى.

2–2 النظام الاقطاعي الحرفي: لقد بدأت بوادر انهيار النظام الزراعي في القرن 12 ممهدة لظهور نظام آخر هو النظام الحرفي.

2–2–1 عوامل نشأة النظام الحرفي: من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور النظام الحرفي هي:

أ– ظهور النقود: وذلك نتيجة لتوسع المبادلات والتخلي عن سياسة الاكتفاء الذاتي والمقايضة، حيث أصبح الهدف من الزراعة هو الإنتاج بقصد التجارة والبيع في السوق بدل الاستهلاك المحلي، وبظهور النقود تمكن الفلاحون الأقنان من دفع رصيد من النقود بدل الريع العيني، وهكذا بدأت العلاقة بينهما تتغير لتصبح وكأنها علاقة استئجار بين المالك (السيد الاقطاعي) والمستأجر (الفلاح القن).

ب– انتعاش الحرف في المدن: انتعشت الحرف في المدن وازدهرت معها الحركة التجارية. وأصبحت المدن تستهوي سكان الريف وعلى رأسهم الحكام الاقطاع الذين اصبحوا يفضلون تأجير أراضيهم الزراعية الواسعة بإيجار نقدي ليعيشوا في المدينة عيشة ترف ورفاهية.

ج– الهجرة الريفية: عندما بلغت امكانيات الانتاج الزراعي حدودها القصوى من اشباع حاجات طبقة الأسياد واستمرار هؤلاء بالضغط على الفلاحين الأقنان لزيادة العائد النقدي اتجه جزء كبير من الفلاحين الأقنان الى المدن هربا من تلك الضغوط ولممارسة الحرف.

د– الأمن: لقد لعبت الكنيسة دورا رئيسيا في انهاء الحروب الأهلية بين الاقطاعيات مما أدى إلى توفر الطرقات الآمنة ما سمح بتوسع المبادلات ونشاط التجارة وبدأت الأسواق تنمو وتلعب دورا في حياة المجتمع.

هـ– تمكن ملوك فرنسا واسبانيا انجلترا من اخضاع الكنيسة والأسياد الاقطاعيين الى سيطرتهم وأدوا دورا مهما في تشكيل ما يسمى الدولة القومية‡ ؛

و– الحروب الصليبية: لعبت دورا أساسيا في وضع حد لسلطة الإقطاعي إذ بدأت الحكومات القومية في تدبر أمرها بجمع الجيوش وتوفير الاحتياطات اللازمة وهذا عن طريق ضم الاقطاعيات الفلاحية الى الدول القومية وتجنيد الفلاحين للحروب.

2–2–2 خصائص النظام الحرفي:

أ– الركيزة الأساسية للنظام الحرفي في مرحلته الأولى كانت الصناع الذين يعرفون باسم أصحاب الحرف، يقيمون في المدينة خارج سلطة الإقطاع ويمتلكون وسائل الانتاج ملكية خاصة، ويزاولون الحرفة مع أفراد الأسرة كما يتولون بأنفسهم الأعمال التجارية.

ب– تشكل النقابات الحرفية: وذلك بانضمام أصحاب الحرفة الواحدة إلى تنظيم نقابي مهمته الأساسية الدفاع عن مصالح أعضائه من الحرفيين عن طريق: المحافظة على مستويات الأسعار؛ تحديد عدد الحرفيين؛منع دخول أفراد جدد؛ مراقبة جودة المنتوج؛ وضع شروط عضوية منها: لايسمح لأي شخص بالحصول على عضوية النقابة المهنية إلابعد التأكد من أن طالب العضوية يمتلك المهارة الفنية للحرفة التي ينتمي إليها، على طالب العضوية أن يدفع الرسم المقرر والذي كان مبلغا كبيرا؛

ج– التقسيم الاجتماعي: أدت كل تلك التطورات إلى تغير كبير في البنية الطبقية للمجتمع الذي أصبح يتكون من الطبقات التالية:

- الطبقة الحاكمة: التي ظهرت بعد تطور المدن وظهور الدول القومية الحديثة؛

‡ **الدولة القومية :أي ظهور الدولة كوحدة سياسية جديدة، والقومية تعني الانتماء الى قوم معينين وأرض معلومة الحدود.**

- طبقة الطوائف الحرفية: بعد ظهور النقابات الحرفية تمركزت مهنة الحرف في يد مجموعة قليلة من الطوائف وهكذا وجد الفلاح الهارب من الظروف الاقتصادية الصعبة في الريف الى المدينة ظروف لا تقل قساوة وصعوبة عن الأولى.
- طبقة الاقطاعيين الزراعيين: الذين يعيشون في المدن ويمتلكون الأراضي التي يقومون بتأجيرها للفلاحين؛
- طبقة التجار: بعد أن تحول الانتاج من الانتاج لاشباع الحاجات الاستهلاكية إلى الانتاج من أجل المبادلة توسعت الاسواق وظهرت طبقة التجار التي استطاعت أن تمد جذورها وتسيطر على رؤوس الاموال.
- طبقة العمال المستأجرين: سواء في الزراعة أو الورش الحرفية صاحبة الدخول المحدودة.

2-2-3 عوامل زوال النظام الحرفي

من أهم العوامل التي ساهمت في زوال هذا النظام:

- تراجع الابتكارات بسبب العوائق التي وضعتها النقابات الحرفية أمام الحرفيين؛
- انحصار التوسع الصناعي بسبب تحديد عدد العمال المستأجري والمعدات التي يمكن لأي صاحب حرفة استخدامها ؛
- التقسيم المتساوي للسوق، حيث كانت النقابات تقسم السوق بالتساوي بين الأعضاء وتحدد الأسعار دون التفريق بين المنتج الجيد والمنتج الرديء الأمر الذي أدى إلى قتل روح الابتكار والتجديد؛
- الاكتشافات الجغرافية قبيل انتهاء القرن الخامس عشر التي دفعت بالكثيرين لركوب البحار للوصول الى العالم الجديد من أجل الثراء؛
- توسع نفوذ التجار الذين لعبوا دورا فاعلا في تشجيع وتبني الاكتشافات الجغرافية، وتراكم رأس المال التجاري نتيجة تجارتهم بالسلع الثمينة مع شعوب البحر المتوسط في الهند والصين مما فسح المجال لظهور نظام اقتصادي جديد؛